

الجزء

عناصر الموضوع

٦٦	مفهوم الجزء
٦٨	الجزء في الاستعمال القرآني
٦٩	الألفاظ ذات الصلة
٧١	أنواع الجزء
٩٩	قواعد في الجزء

مفهوم الجزاء

أولاً: المعنى اللغوي:

«الجيم والراء والياء: قيام الشيء مقام غيره، ومكافأته إيّاه»^(١)، وفلانٌ ذو غناءٍ وجزاء -ممدود-، وتجازيت ديني: تقاضيته^(٢).

والجزاء يأتي بمعنى القضاء أيضًا، وجزيته بما صنع جزاء وجزيته، بمعنى، ويقال: جزيته فجزيته، أي: غلبته^(٣)، وجزى الشيء يجزي: كفى؛ ومنه جزى عنه هذا الأمر: أي: قضى.

وفي حديث صلاة الحائض: (فأمرهنّ أن يجزين)^(٤) أي: يقضين.

وفي حديثٍ آخر: (تجزّي عنك ولا تجزي عن أحدٍ بعدك)^(٥).

وتقول: إن وضعت صدقتك في آل فلانٍ جزت عنك، فهي جازيةٌ عنك.

والجوازي: جمع جازية أو جازٍ أو جزاء، ويكلُّ فسّر قول الحطيئة: من يفعل الخير لا يعدم جوازيه.

ويقال: جزتك عني الجوازي: أي جزتك جوازي أفعالك المحمودة^(٦).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرّف مصطلح الجزاء خلق كثير، ومما ينبغي ذكره في هذا المقام هو ما ينسجم مع طبيعة الدراسة القرآنية، ومن هذه التعريفات:

ذكر الإمامان الأصفهاني والمناوي أن الجزاء اصطلاحاً هو: «كل ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(٧).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) العين، الفراهيدي ٦/١٦٤.

(٣) الصحاح، الجوهري ٦/٢٣٠٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم ٣٣٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العيدين، باب الأكل يوم النحر، رقم ٩٥٥.

(٦) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٥٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤٣/١٤٤ - ١٤٤، المصباح المنير،

الفيومي ١/١٠٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٢٧٠، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/٣٥١ -

٣٥٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/١٢١ - ١٢٢.

(٧) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٩٥، التوقيف، المناوي، ص ١٢٥.

وعرّفه الشيخ محمد عبد الله دراز بأنه: «رد فعل القانون على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون»^(١).

وبالنظر إلى التعريفين السابقين يتضح أن التعريف الأول أكثر دقة؛ إذ إنه جامع لكل جوانب المصطلح من جهة، وهو مانع لغيره من الألفاظ ذات الصلة، كما أن تعريف الشيخ محمد عبد الله دراز يظهر فيه التأثير من التعريف القانوني له في الدنيا، وكما هو معلوم فإن التعريف القرآني يركز على الجانبين الدنيوي والأخروي، مع تقديم الآخرة على الدنيا. وكلا المعنيين اللغوي والاصطلاحي لا يخرجان عن أن معنى الجزاء مقابلة الخير بالخير والشر بالشر.

(١) دستور الأخلاق في القرآن ص ٢٤٥.

الجزء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (جزى) في القرآن (١١٧) مرة^(١).
والصيغ التي وردت عليها هي:
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤	﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]
الفعل المضارع	٧٠	﴿نِعْمَةٌ مِنَّ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْرَىٰ مِنْ شَكْرِكَ﴾ [القمر: ٣٥]
المصدر	٤٢	﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]
اسم الفاعل	١	﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]

وجاء الجزء في القرآن على ثلاثة وجوه^(٢):

- أحدها: ثواب الخير أو الشر: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١]، يعني: يشيبه على ما سعى؛ إن خيرًا فيكافئه بالخير، وإن شرًا فيعاقبه بالشر.
- الثاني: القضاء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْقَضُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، يعني: لا تقضي.
- الثالث: البذل والعوض: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، يعني: بدله.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١٦٨ - ١٧٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٨٩ - ٣٩١.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢ / ٣٨٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثواب:

الثواب لغةً:

الثواب اسم للمصدر؛ لأن مصدر الثلاثي ثوبًا وثوبانًا، ومصدر الرباعي إثابة، وفعل الثواب ثلاثي أجوف معتل العين، ولفظ الثواب في اللغة جاء على عدة معانٍ، أبرزها: العود والرجوع، والاجتماع، والجزاء^(١).

الثواب اصطلاحًا:

الجزاء كيف ما كان من الخير والشر، إلا أن استعماله في الخير أكثر^(٢).

الصلة بين الثواب والجزاء:

الجزاء أعم وأشمل من الثواب؛ حيث إن الجزاء على المكافأة مقابل عمل الخير أو الشر، كلٌ حسب عمله، أما الثواب فهو مكافأة مقابل الطاعة والعبادة فقط.

٢ العقاب:

العقاب لغةً:

العقاب مأخوذ من (عقب): العين والقاف والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره. والأصل الآخر يدل على ارتفاع وشدة وصعوبة^(٣).

العقاب اصطلاحًا:

العقاب: هو جزاء الشر، والنكال أخص منه^(٤)، أو هو ما يلحق الإنسان بعد الذنب من المحنة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا^(٥).

الصلة بين العقاب والجزاء:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للعقاب تبين أن الجزاء أعم وأشمل منه؛ إذ إن العقاب يعني إصلاح الخطأ بمحاسبة، والجزاء يضاف إليه مكافأة عمل الخير بالثواب.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/٣٩٣، النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/٢٢٧، مختار الصحاح، الرازي ص ٩٠، لسان العرب، ابن منظور ١/٢٤٣. القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/٦٤، المصباح المنير، الفيومي ١/٨٧ تاج العروس، الزبيدي ٢/١٠٣.

(٢) الكليات، الكفوي ص ٣٢٨.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/٧٧.

(٤) الكليات، الكفوي ص ٦٥٤.

(٥) كشف اصطلاحات الفنون، التهانوي ٢/١١٩٢.

الحساب لغةً:

مأخوذ من قولهم: حسبك كذا، أي: كفاك، فسمي الحساب في المعاملات حسابًا لأنه يعلم به ما فيه كفاية وليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان، والحسبان: الظن^(١).

الحساب اصطلاحًا:

هو المؤاخذه والمجازاة، والحساب: ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه، ولا يخرج المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي له^(٢).

الصلة بين الحساب والجزاء:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للحساب تبين أن الجزاء أعم وأشمل منه؛ إذ إنَّ الحساب يعني إيقاع العذاب على الخاطيء مع كفاية المحاسب في القدرة على حماية المظلوم.

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢ / ٨٧، الصحاح، الجوهري ١ / ١١٠، تاج العروس، الزبيدي ٢ / ٢٦٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١ / ١٧١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢ / ٤٦٠، التوقيف، المناوي ص ١٣٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣ / ١٣٠، الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٨ / ١٣١.

[٣].

وجاء وصف اثنين من أولي العزم بهذا الشرف العظيم، وهما:

١. نوح عليه السلام ، قال عز وجل عنه:
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء]:

[٣].

٢. إبراهيم عليه السلام إذ قال تعالى عنه:
﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِيهِ أَجَبْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إِلَيْكَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

ومن فضل الله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة إلا كان خيراً لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا؛ جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا؛ جازاهم جزاء الصابرين^(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أي: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إيّاهم على كفرها^(٣).

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطًا بِالنَّذْرِ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ حَمَيْتُمْ بِسَحْرِ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر]:

أنواع الجزاء

تحدث القرآن الكريم عن أنواع الجزاء وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولاً: الجزاء الحسن وأهله في الدنيا:

تعددت صور الجزاء الحسن وأهله في الدنيا، ومن هذه الصور:

١. جزاء الشاكرين.

والشكر مطلقاً: الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فالعبد يشكر الله، أي: يثنى عليه بذكر إحسانه الذي هو النعمة. والله تعالى يشكر العبد، أي: يثنى عليه بقبول إحسانه الذي هو الطاعة. وهذا المفهوم ينقسم إلى:

الشكر اللغوي: وهو الوصف بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل باللسان والجنان والأركان.

والى الشكر العرفي: وهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر والكلام وغيرها إلى ما خلق له وأعطاه لأجله، كصرف النظر إلى مصنوعاته، والسمع إلى تلقي إنذاراته، والذهن إلى فهم معانيها^(١).

وللإنسان حالان لا يخرج عنهما، ولا ثالث لها ﴿وَإِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان]:

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧٩.

(١) الكليات، الكفوي ص ٥٣٤.

من مبادئ التقوى، وقد تسمى التقوى خوفاً وخشية، ويسمى الخوف تقوى^(٣).

لذلك جاء جزاؤهم مفخماً بكل أنواع التعظيم والإكرام، ومن هذه الجزاءات:

قوله تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

أي: قل لهم - مبيناً لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على النافع -: ﴿أَذَلِكَ﴾ الذي وصفت لكم من العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى فالله قد وعده إياها ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موثلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: يطلبون وتتعلق بهم أمانيتهم ومشيتهم، من المطاعم والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات والحدائق المرجحة^(٤)، والفواكه

وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَبْصُرَ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُوَيْدِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُوَيْدِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٥].

قال محمد بن إسحاق: «أي: فمن كان منكم يريد الدنيا ليس له رغبة في الآخرة نؤته منها ما قسم له فيها من رزق، ولا حظ له في الآخرة ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ منكم ﴿نُوَيْدِهِ مِنْهَا﴾ ما وعده، مع ما يجري عليه من رزقه في دنياه، وذلك جزاء الشاكرين أي: المتقين»^(١).

٢. جزاء المتقين.

التقوى: هو على ما قاله علي رضي الله عنه: «ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة، وهي التي يحصل بها الوقاية من النار، والفوز بدار القرار»^(٢).

وغاية التقوى البراءة من كل شيء سوى الله، ومبدؤه اتقاء الشرك، وأوسطه اتقاء الحرام، والتقوى منتهى الطاعات، والرغبة

(٣) الكلبيات، الكفوي ص ٢٩٩.

(٤) رجحن: ارجحن الشيء: مال، ونخل مراجيح ومواقير: ثقال الأحمال ومن المجاز: هذه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/١٠٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/٢٦٨ غرائب القرآن، النيسابوري ١/١٣٨.

وَأَعْتَبْنَا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ آثَرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأَسَا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاةٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ [النبا: ٣١-٣٦].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. قال ابن عباس والضحاك: منزهاً. وقال مجاهد، وقتادة: فازوا، فنجوا من النار.

والأظهرها هنا قول ابن عباس؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَائِقُ﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها ﴿وَأَعْتَبْنَا﴾ و﴿كَوَاعِبَ آثَرَابًا﴾ أي: وحوراً كواعب.

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَكُوَاعِبَ﴾ أي: نواهد، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين؛ لأنهن أبكارٌ عرب آثراب، أي: في سنٍّ واحدة^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَةٍ مِّمَّا يَسْتَوُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا ﴿٤٣﴾ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن عبادة المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات إنهم يوم القيامة يكونون في جناتٍ وعيون، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظلِّ اليعقوم، وهو الدخان

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٣٠٨.

التي تسر ناظرها وأكليها، من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاءوا يصرفونها ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومسكن مزخرقة، وأصوات شجية تأخذ من حسنها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته على ممر الأوقات، وتعاقب الآنات، ﴿كَانَتْ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعَدَا مَسْئُولًا﴾ يسأله إياها، عبادة المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأى الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي العاملين، عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة؟ أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولى الأبواب؟^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٦﴾ حَدَائِقَ

رحى مرجحة للسحابة المستديرة الثقيلة، ويقال: فلان في دنيا مرجحة أي: واسعة كثيرة.

انظر: الصحاح، الجوهري ٥/٢١٢١، تهذيب اللغة، الأزهرى ٥/٢٠٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٩.

الأسود المتن.

﴿وَفَوَّكِهِ مِمَّا يَسْتَهْوُونَ﴾ أي: من سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَفَّرَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم، ثم قال تعالى مخبراً خبيراً مستأنفاً: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل^(١).

٣. جزاء المحسنين.

الإحسان: هو فعل ما ينفع غيره بحيث يصير الغير حسناً به، كإطعام الجائع، أو يصير الفاعل به حسناً بنفسه^(٢).

والإحسان مطلوب في كل شيء بهدي دين الفطرة، الداعي لحسنتي الدنيا والآخرة، وجزاء الإحسان في كل شيء بحسبه، قال عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

كما أن الإساءة محرمة في كل شيء وجزاؤها من جنسها، قال عز وجل: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]^(٣).

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبده إلا أن يحسن إليه

بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

هو تعبير جامع يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب، ويقرر أن هذا ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم، فهو حقهم الذي لا يخيب ولا يضيع^(٥).

وخص المولى الأنبياء بكثير من النعم بسبب إحسانهم.

فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

قال محمد رشيد رضا: «قال تعالى بعد ذكر هؤلاء: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق، وهداية الدين وإرشاد الخلق، وهذا كما قال الله تعالى في أحدهم -يوسف-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

فهو جزاء خاصٌ بعضه معجلٌ في الدنيا، أي: ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا

(١) المصدر السابق ٨/٣٠١.

(٢) الكلبيات، الكفوي ص ٥٣، ٦٦٧.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٨/٤١١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣١.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٣٠٥١.

في أحسّ الأشياء، ثم بعد هذا كلّه نصرهم عليهم، وأقرّ أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمّعوه طول حياتهم، ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجليّ المستبين وهو التوراة^(٣).

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَفَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرّاً بَالِقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْنَا عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الصفات: ٧٥-٨٠].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَّمْنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٠﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصفات: ١٠٩-١١٠].

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١١٣﴾ وَتَدَيَّنَتْ أَنْ يُتَابِعَهُمَا ﴿١١٤﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّبَيَّا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الصفات: ١٠٣-١٠٥].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرنا عمّن أطاعنا المكاره والشّدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:

قبل الآخرة، ومنهم من يرجع جزاءه إلى الآخرة^(١).

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: استكمل عقله، وتمّ خلقه ﴿ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني: النبوة، إنّه جباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنّه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة ربّه تعالى^(٢).

وقال تعالى مثل ذلك عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَامَنَّا بِمُوسَىٰ وَآيَاتِهِ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [القصص: ١٠٧].

وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الصفات: ١٢٠-١٢١].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنّجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم

(١) المنار ٧/٤٨٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٣٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/٣٦.

٢-٣] (١).

وأثنى الله على إلیاس كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فقال: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصفات: ١٣٠-١٣١] (٢).

وقال تعالى عن جزاء كل من أحسن العمل: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٣-٤٤] (٣).

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠].

كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة.

ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ نَوَابِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

(١) المصدر السابق ٣٠/٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٠١/٨.

[الأعلى: ١٧].

وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]. ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿وَلِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠] (٤).

وقال السعدي: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع، وعيشه هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور ﴿وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥).

قال الشعراوي: «فهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألا يترك الدنيا وأسبابها، فربما أخذها منك الكافر، وتغلب عليك بها، أو يفتنك في دينك بسببها، فمن يعبد الله أولى بسرّه في الوجود، وأسرار الله في الوجود هي للمؤمنين، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين.

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تأمن الفتنة من الكافرين في دنياك، ولا يخفي ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا، مما أعطاهم الفرصة ليسيروا على سياساتنا

(٤) المصدر السابق ٤/٥٦٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٣٩.

ومقدراتنا.

لذلك يقول سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠].

أي: يأخذون حسناتهم، وتكون لهم اليد العليا بما اجتهدوا، وبما عملوا في دنياهم، وبذلك ينفع الإنسان نفسه وينفع غيره، وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هي العليا، وكان ثوابك وخيرك موصولاً بخير الآخرة؛ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يفرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)^(١). ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر هو ثمرة من ثمرات الإحسان في الدنيا وهي الأمن^(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن كثير: «يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم

وأخراهم»^(٣).

٤. جزاء المتصدقين.

الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كسب لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله، وإحساناً إلى خلقه، وقد ثبت في الصحيحين: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - فذكر منهم -: ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)^(٤).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: (ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد أو جبتان من حديد، قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقبهما، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه، حتى تغشى أنامله، وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت، وأخذت كل حلقة مكانها)، قال أبو هريرة: (فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بإصبعه هكذا في جيبه، فلو رأيت

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨٩/٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم ٦٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٠٣١.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم ٢٣٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم ١٥٥٣.

(٢) تفسير الشعراوي ٧٨٨٦/١٣.

يوسعها ولا يتسع^(١). وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فجود الرجل يحببه إلى أصداده، وبخله يبعثه إلى أولاده، كما قيل^(٢):
ويظهر عيب المرء في الناس ببخله
وتستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطّ بأثواب السخاء فإنني

أرى كلَّ عيبٍ والسخاء غطاؤه^(٣)
ومدح الله تعالى المنفقين في سبيله،
وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات، من ليلٍ
أو نهارٍ، والأحوال، من سرٍّ وجهارٍ، فقال:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

والنّفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضًا،
كما ثبت في الصحيحين أنّ رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاصٍ
حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب جيب القميص من عند الصدر وغيره، ١٤٣/٧، رقم ٥٧٩٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل، ٧٠٨/٢، رقم ١٠٢١.

(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس. انظر: روضة العقلاء، أبو حاتم البستي ص ٢٢٧، أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٨٤، ولم نجدهما في ديوانه.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤١٩/٦.

ومن الفوائد في هذه الآية:

١. الثناء على الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلاً، أو نهاراً، أو سرّاً، أو جهاراً.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧٠٧/١.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة، رقم ٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم ١٦٢٨.

[٢٤]

فمن أسباب النجاة من صفات الذم العمل بما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: في أموالهم نصيبٌ مقررٌ لذوي الحاجات. فالصلاة والزكاة والصدقة علاجٌ لما في جبلّة الإنسان من الهلع والجبن الحاجم له عن الإقدام في الدفاع عن الحق وإعلاء كلمة الله، ومن الشحّ الصادّ له عن الإنفاق في سبيل الله؛ ولذلك كان المنافقون أجبين الناس وأبخلهم^(٣).

ثانيًا: الجزاء السيئ وأهله في الدنيا:

تعددت صور الجزاء السيئ وأهله في الدنيا، ومن هذه الصور:

١. جزاء المجرمين.

أخبر تعالى أنه أهلكت الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعد ما جاءتهم البينات على أيدي الرسل، وتبين الحق فلم يتقادوا لها ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم^(٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرِّ لِحْيَاتِهِمْ وَكَذَلِكَ

٢. كثرة ثوابهم؛ لأنه سبحانه وتعالى أضاف أجرهم إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ والثواب عند العظيم يكون عظيمًا.

٣. أن الإنفاق يكون سببًا لشرح الصدر، وطرد الهم والغم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا أمر مجرب مشاهد؛ أن الإنسان إذا أنفق بيتغي وجه الله انشرح صدره، وسرت نفسه، واطمأن قلبه؛ وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» أن ذلك من أسباب انشراح الصدر^(١).

٤. كرم الله عز وجل حيث جعل هذا الثواب الذي سببه منه وإليه أجرًا لفاعله؛ كالأجير إذا استأجرته فإن أجره ثابت لازم.

٥. كمال الأمن لمن أنفق في سبيل الله؛ وذلك لانتفاء الخوف والحزن عنهم^(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣]

(١) حيث قال: «فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيرًا عظيمًا في شرح الصدر».

انظر: زاد المعاد ٢/٢٢.

(٢) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين، ٣/٣٧٢-٣٧٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/٢٢٦،

٢٢٧ المنار، محمد رشيد رضا ١٠/٤٦٨

تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٨٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٩.

تَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿ [الأعراف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا يَتُؤْمِنُونَ﴾ كَذَلِكَ تَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿ [يونس: ١٣].

قال سيد قطب رحمه الله: «لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم - وهو الشرك - إلى الهلاك، وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية، في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط، وتلك القرون جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم: ﴿وَمَا كَانُوا يَتُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها، فلم يعودوا مهتئين للإيمان، فلقوا جزاء المجرمين ﴿كَذَلِكَ تَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وإذ يعرض عليهم نهاية المجرمين الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا، فحق عليهم العذاب، يذكرهم أنهم مستخلفون في مكان هؤلاء الغابرين، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]»^(١).

وقال تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ تَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٦٩.

﴿تُدْمِرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالزَّمِيرِ﴾ [الذاريات: ٤٢].

أي: كالشيء البالي؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم بقية ﴿كَذَلِكَ تَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا^(٢).
٢. جزاء الظالمين.

جزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سعارات الظلم من الظالمين؛ لأن الحق لو تركها للأخرة لاستشرى الظلم، والذي لا يؤمن بالأخرة يصبح محترفاً للظلم^(٣).
قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

أي: إنني أريد بما ذكرت من اتقاء مقابلة الجناية بمثلها أن ترجع أنت إن فعلتها متلبساً ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: إثم قتلك إياي، وإثمك الخاص بك، الذي كان من شؤمه عدم قبول قربانك، وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس رضي الله عنه، وفي وجه آخر وهو أنه مبني على كون القاتل يحمل في الأخرة إثم من

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٦.

(٣) تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠٧٦.

إلى تذكيره بأن المعتدي يحمل إثم نفسه، وإثم من اعتدى عليه بعدل الله تعالى في القصاص والجزاء إلى تذكيره بعذاب النار وكونها مثوى للظالمين الفجار^(١).

وقال تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: فكانت عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له، وتصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: جزاء كل ظالم^(٢).

وقال السعدي: «﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلي عنهم، واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر

قتله إن كان له آثام؛ لأن الذنوب والآثام التي فيها حقوق للعباد، لا يغفر الله تعالى منها شيئاً حتى يأخذ لكل ذي حق حقه، وإنما القصاص في الآخرة بالحسنات والسيئات، فيعطى المظلوم من حسنات الظالم ما يساوي حقه إن كان له حسنات توازي ذلك، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازي ذلك إن كان له آثام أو أوزار، وما نقص من هذا أو ذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار، وفي ذكر المتكلم إثم وإثم أخيه تواضع وهضم لنفسه بإضافة الإثم إليها على الوجه الثاني، وتذكير للمخاطب بأنه ليس له حسنات توازي هذا الظلم الذي عزم عليه.

ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار في الآخرة؛ لأنك تكون ظالماً، والنار جزاء كل ظالم، فتكون من أهلها حتماً، ترقى في صرفه عن عزمه من التبرؤ إليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان سبب التقبل عند الله تعالى وهو التقوى، إلى تنزيه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها، إلى تذكيره بما يجب من خوف الله تعالى رب العالمين الذي لا يرضيه ممن وهبهم العقل والاختيار إلا أن يتحروا إقامة سننه في تربية العالم، وإبلاغ كل حي يقبل الكمال إلى كماله،

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦ / ٢٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨ / ٧٦.

بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته عاصي على بصيرة لا عذر له»^(١).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]، أي: هذه هي شريعتنا نحكمها في السارق، والسارق من الظالمين^(٢).

٣. جزاء المفترين.

كل مفترٍ على الله، كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا^(٣).

وتكرر في القرآن الكريم أنه لا أظلم ممن يفتر الكذب على الله عز وجل، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

وهذه الآيات وغيرها مما هي في معناها، وهو: أي ظلم أشنع من الافتراء على الله والتكذيب بآياته؟!^(٤).

والجواب: لا أظلم في أبواب الافتراء

ومعانيها ممن افترى على الله الكذب. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذَا لَهُمْ آفَئَةٌ وَحَارِثٌ حَاجِرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ لَشَاءَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْءَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا آفِرَاءَ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

هذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقى من الله، ومأمور به منه سبحانه، ولو قالوا: إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة، لكنه افتراء شديد؛ لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين؛ ولذلك يجازيهم الله بما افترأوا الجزاء الشديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع^(٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطققت بهم البراذين.

(٥) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١١٢/٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٧٥، تفسير الشعراوي ٣٩٦٢/٧.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/٢٠١٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٤.

(٤) معاني القرآن، النحاس ٣/٣٠.

ثالثاً: الحدود والكفارات والقصاص:

لو أننا تناولنا بالدراسة النظام العقابي في التشريع الإسلامي فلا مناص من أن نميز فيه مرتبتين مختلفتين: فهناك الجزاءات التي حددها الشرع بدقة وصرامة، وهي التي تسمى بـ(الحدود) وهناك جزاءات أخرى تسمى (التعزيرات) وهي متروكة لتقدير القاضي.

فالمرتبة الأولى تتكفل بمجازاة عدد قليل من الجرائم، هي الحرابة والسرقه وشرب الخمر والزنا والقذف، أما الجرائم الأخرى فتتبع المرتبة الثانية.

صحيح أن لأصحاب الحق ألا يلاحقوا المجرم أمام القضاء، سواء بأن يعفوا عن عمله العدواني عفواً تاماً، أو بأن يسطلحوا متراضين معه، وحينئذ لا يكون للجزاء الشرعي مجال.

ولكن متى صارت الجريمة عامة، أعني متى اتصلت بعلم السلطة المختصة، فإن أصحاب الحق يكونون بذلك قد تنازلوا عن حقهم، وبذلك يصبح الجزاء في هذه الحالة ألبتة من شأن الصالح العام، ويجب أن يطبق بلا هوادة أو رأفة.

إن الصرامة في هذا الصدد لا تجعل مجالاً أمام أي تنازل أو حل وسط، ولا شك أننا نعرف قصة السرقه التي ارتكبتها امرأة تنتمي إلى طبقة الأشراف العربية، والتي

وهكذا روى أيوب السخيتاني عن أبي قلابه الجرمي أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال: هي والله لكل مفترٍ إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل^(١).

أي أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم، فكل مفترٍ يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لا بد أن يناله هذا الجزاء؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث في تاريخهم؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك سبحانه أن يعتبر السامع للقصة في نفسه، واعتبار السامع للقصة في نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيهاً وتحذيراً: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي: احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم، وهو سبحانه ينبه كلاً ليتفهم من هذه العبرة وهذه اللقطة؛ فإن التاريخ مسرود لأخذ العبرة والعظة ليتعظ بها السامع^(٢).

وما تقدم أمثلة لمواطن من كتاب الله مما جاء فيها الجزاء السيئ في الدنيا وأهله وهناك غيرها، ومنها: جزاء البغاة^(٣)، وجزاء المكذبين بآيات الله^(٤)، وجزاء الكافرين^(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٧٧، ٤٧٨.

(٢) تفسير الشعراوي ٧/٤٣٦٨.

(٣) انظر: سورة الأنعام ١٤٦.

(٤) انظر: سورة البقرة ٨٥.

(٥) انظر: سورة البقرة ١٩١، وسورة التوبة ٢٦،

وسورة القمر ١٤، وسورة سبأ ١٧.

صفوان: إني لم أرد هذا يا رسول الله، هو عليه صدقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فهلا قبل أن تأتيني به) (٢).

وهكذا نجد أن العفو عن هذا النوع من الأخطاء غير صحيح إلا إذا كان في المجال الخاص، فمتى علمت السلطة العامة بالجريمة يصبح تطبيق الجزاء (الحد) أمرًا جازمًا لا رجعة فيه، وقد ورد بذلك نص آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم هو قوله: (تعافوا الحدود بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب) (٣).

فالسرقه -إذن- تحتم في الشريعة الإسلامية قطع يد السارق، بنص القرآن: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

والحرابة عقوبتها إما الموت وإما تقطيع الأيدي والأرجل وإما النفي: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، باب ترك الشفاعة للسارق إذا بلغ السلطان، ٨٣٤/٢، وأحمد في المسند، ١٥/٢٤، رقم ١٥٣٠٣.

وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٣٤٥/٧، رقم ٢٣١٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان، رقم ٤٣٧٦، والنسائي في سننه، كتاب قطع السارق، باب ما يكون حرزًا وما لا يكون، ٧٠/٨.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/٥٦٨، رقم ٢٩٥٤.

أعلن النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبةها، وفي كلمات بلغت غاية القوة مبدأ مساواة الجميع أمام الشرع، فحين تشفع لديه في هذا لموضوع واحد من خيرة أصحابه، قام وخطب في الناس هذه الخطبة القصيرة: (أيها الناس، إنما أضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) (١).

وهذه حالة أخرى تزيدنا علمًا: ذلك أن صفوان بن أمية حين أجاب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي أمر به المسلمين المضطهدين خارج المدينة أن يجيئوا ليستقروا في هذه العاصمة الإسلامية، وقيل له: إنه إن لم يهاجر هلك، غادر مكة، مسقط رأسه، وجاء ليستقر بجوار قائده الروحي، وما كاد يصل حتى رغب في أن يستريح في المسجد هنيئة، فنام في المسجد، وتوسد رداءه، فجاء سارق فأخذ رداءه، فأخذ صفوان السارق فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقطع يده، فقال له

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم ٣٤٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم ١٦٨٨.

الله لهن سبيلاً: الشيب بالثيب، والبكر بالبكر، الشيب جلد مائة، ثم رجم بالحجارة، والبكر جلد مائة، ثم نفي سنة^(١).

وأخيراً: نجد أن القاذف يستحق تقريباً نفس العقوبة ما دام قد افترى على الآخرين كذبا، واستحل لحميمهم، فله ثمانون جلدة بدلاً من مائة: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]^(٢).

وقال تعالى عن عقوبة القتل الخطأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُمْسِقُونَ فَمَا يَكْفُرُوا لَكُمْ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً وَإِنْ كَانُوا مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه وأنه منافي للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر أو من فاسق قد نقص إيمانه

فَسَادًا أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

والعقوبة المنصوص عليها في القرآن للزاني هي مائة جلدة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. ولكن يجب أن نضيف إلى هذه العقوبة تبعاً للأحاديث: «تغريب عام».

وعلى أية حال فإن عقوبة الموت يجب أن تستبعد من هذا المجال إذا ما التزمنا حرفية النص القرآني الذي ذكرناه آنفاً، والذي لا يفرق بين المحصن وغير المحصن، أي: بين البكر والمتزوج، ولكن المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته قد أثبت هذا الفرق، وبمقتضاه يستحق الأشخاص المحصنون الذين تثبت عليهم جريمة الزنا عقوبة الموت كأشنع ما يكون.

ولنذكر أن تعبير القرآن -مع ذلك- يبدو أنه يفتح الباب لهذا الإجراء على أنه غاية التطور التشريعي في هذا الموضوع، والواقع أن الجزاء المنصوص في القرآن بالنسبة إلى النسوة الزانيات كان في البداية الحبس: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَقَّعَنَ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

وبدلاً من أن يفرض هذه السبيل جاء النص النبوي اللاحق وهو قوله صلى الله عليه وسلم مبيهاً لها: (خذوا عني، فقد جعل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنا، رقم ١٦٩٠.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن، محمد بن عبد الله دراز ص ٢٦٢-٢٦٥.

ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله (من) وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط، فإن على القاتل ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعنته، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد ﴿تُسَلَّمَةُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك، الميت، فالدية داخلة فيما ترك وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿لَاَ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعتق عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو؛ لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ﴾

نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدق قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) ^(١)، فعلم أن القتل من الكفر العملي وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله؛ ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإن المخطئ الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا مجترئ على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده؛ أمر تعالى بالكفارة والدية، فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حرّاً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ (من) الدال على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ(من) في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، رقم ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، رقم ٦٥.

والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التبع لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله، ومدّها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها ووجوب التابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار، ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية ولو كان خطأ لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك، ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفسد، ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذراً من تحميلهم، ويخف عنهم بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخضفت أيضاً بتأجيلها عليهم

عَدُوِّكُمْ ﴿ أَي: من كفار حريين ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً ﴾ أَي: وليس عليكم لأهله دية لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْتُولِ ﴾ المقتول ﴿ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ الرقبة ولا ثمنها بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوادثه الأصلية شيء يفي بالرقبة ﴿ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ أَي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التابع، كالمرض والحيف ونحوهما، وإن كان لغير عذر انقطع التابع ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿ تَوْبَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أَي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات

المحقق شمس الدين ابن القيم رحمه الله في «المدارج»^(٢) فإنه قال -بعد ما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:- «وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة ولا يلزم من وجود مقتضي الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضى لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارًا بمقتضى العقاب وموانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدريّة، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمراً، وقد جعل الله سبحانه لكل ضدّاً يدافعه ويقاومه،

ثلاث سنين، ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتل عن مصيبتهم بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل^(١).

وأما عقوبة القتل العمد: فذكر تعالى وعيده وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه أولو العقول، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ولم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازي صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار، فعياًً بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين.

والصواب في تأويلها ما قاله الإمام

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٩٦.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٢.

وقال تعالى عن عقوبة الصيد في الحرم:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْرِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِمِثْلِ الَّذِي كَتَبَتْهُ أَوْ كَفْرَةً طَعَامُهُمْ سَكَكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

أي: ومن قتل شيئاً من الصيد وهو محرمٌ قاصدٌ لقتله، فجزاؤه أو فعلية جزاءً من الأنعام مماثل لما قتله في هيئته وصورته إن وجد، وإلا ففي قيمته^(١).

وادعى بعض أهل العلم الإجماع على أن الحدود كفارات لمن أقيمت عليه^(٢)، وقال القاضي عياض: «ذهب أكثر العلماء أن الحدود كفارات»^(٣)، وتوقف بعض العلماء في كون الحدود كفارات ولم يقضوا في ذلك بشيء^(٤).

ومن الآيات الصريحة في أن يوقع على الجاني مثل ما جنى - النفس بالنفس والجرح بالجرح - (القصاص):

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ لَنْفُسٍ بِالْحَرْمِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٨٦/٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٤.
(٢) سبل السلام، الصنعاني ٤٢٦/٢.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ٦٦/١.
(٤) مرعاة المفاتيح، المباركفوري ٧٩/١.

ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتضى للصحة ومقتضى للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرج منها، ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه من أمر المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده رأي عين، ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته وعزته وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله.

سَمِيءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْوِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّن أَعْتَدْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿البقرة: ١٧٨﴾.

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بأنه فرض عليهم ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة، التي قتل عليها المقتول إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه؛ إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين، ثم يبين تفصيل ذلك^(١).

فالعدل في القصاص -أيها المؤمنون- حرّكم بحرّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم^(٢).

وليس الهدف من القصاص الانتقام ولا إرواء الأحقاد، إنما هو أجلّ من ذلك وأعلى إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة، ثم إنه للتعقل والتدبر في حكمة الفريضة، ولاستحياء القلوب واستجاشتها

لتقوى الله.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي آلَآبِئِ لِمَلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد، كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل، شفاؤها من الحقد والرغبة في الثأر، الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاماً، كما في حرب البسوس المعروفة عندهم، وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلاً بعد جيل، ولا تكف عن المسيل.

وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم، فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتل في سمة الحياة، فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياة، حياة مطلقة، لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة.

ثم -وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة- استجاشة شعور التدبر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٤٨٩.

وَأَعْتَدْتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَنِي عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَآئِيهِ
بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَنِي عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١٩٤﴾.

ذكر تعالى هذه القاعدة حجةً لوجوب
مقاصّة المشركين على انتهاك الشهر الحرام
بمقابلتهم بالمثل؛ ليكون شهرٌ بشهرٍ جزاءً
وفاقاً.

وفي جملة: ﴿وَأَعْتَدْتُ قِصَاصٌ﴾ من
الإيجاز ما ترى حسنه وإبداعه.

ثم صرح بالأمر بالاعتداء على المعتدي
مع مراعاة المماثلة - وإن كان يفهم ممّا
قبله - لمكان كراهتهم للقتال في الحرم
والشهر الحرام فقال تفریباً على القاعدة
وتأييداً للحكم: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَنِي عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا
عَآئِيهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَنِي عَلَيْكُمْ﴾ وإنما يتحقّق هذا

فيما تتأتى فيه المماثلة، وسمّى الجزاء اعتداءً
للمشاكله، وقد استدللّ الإمام الشافعيّ بالآية
على وجوب قتل القاتل بمثل ما قتل به بأن
يذبح إذا ذبح، ويخنق إذا خنق، ويغرق إذا
أغرق، وهكذا، وقال مثل ذلك في الغضب
والإتلاف، والقصد أن يكون الجزاء على
قدر الاعتداء بلا حيفٍ ولا ظلمٍ، وأزيد على
هذا ما هو أولى بالمقام، وهو المماثلة في
قتال الأعداء كقتل المجرمين بلا ضعفٍ ولا
تقصيرٍ، فالمقاتل بالمدافع والقذائف النارية
أو الغازية السامة يجب أن يقاتل بها، وإلاّ
فانت الحكمة لشرعية القتال وهي منع الظلم

لحكمة الله، ولتقواه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.
فهذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن
الاعتداء، الاعتداء بالقتل ابتداءً، والاعتداء
في الثأر أخيراً^(١).

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ
حَيَوةٌ﴾ يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم
- وهو قتل القاتل - حكمة عظيمة لكم، وهي
بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه
يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة
النفوس، وفي الكتب المتقدمة: القتل أنفى
للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح
وأبلغ وأوجز^(٢).

قال أبو العالية: «جعل الله القصاص
حياةً، فكم من رجلٍ يريد أن يقتل فتمنعه
مخافة أن يقتل».

وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير،
وأبي مالك، والحسن، وقتادة، والربيع بن
أنس، ومقاتل بن حيان.

﴿يَتَأُولِي الْأَتْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
يقول: يا أولي العقول والأفهام والنهى،
لعلكم تنزجرون فتتركون محارم الله ومآثمه،
والتقوى: اسمٌ جامعٌ لفعل الطاعات، وترك
المنكرات^(٣).

وقال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٦٥.

(٢) انظر: البرهان، الزركشي ٣/ ٢٢٢، الإتقان في

علوم القرآن، السيوطي، ٣/ ١٨٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٢.

والعدوان، والفتنة والاضطهاد، وتقرير الحرية والأمان، والعدل والإحسان، وهذه الشروط والآداب لا توجد إلا في الإسلام؛ ولذلك قال تعالى بعد شرح القصاص والمماثلة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تعتدوا على أحد، ولا تبغوا ولا تظلموا في القصاص بأن تزيدوا في الإيذاء، وأكد الأمر بالتقوى بما بين من مزيته وفائدتها فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالمعونة والتأييد، فإن المتقي هو صاحب الحق وبقاؤه هو الأصلح، والعاقبة له في كل ما ينازعه به الباطل؛ لأن من أصول التقوى اتقاء جميع أسباب الفشل والخذلان^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٦٣﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى أمر برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية ورتب ذلك على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ يعني إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه، فإن استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل الله ورحمته، وفي قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ دليل على أن الأولى له أن لا يفعل، كما أنك إذا قلت للمريض: إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح، كان معناه أن

وقال الشعراوي: «قوله الحق: ﴿وَأَلْمَمْتُ بِقِصَاصٍ﴾ يقتضي منا أن نسأل: كيف يكون ذلك؟ وما هو الشيء الحرام؟ إن الشيء الحرام هو ما يحظر هتكه، والشيء الحلال هو المطلق والمأذون فيه، فهل يعني ذلك أن الذي يقوم بعمل حرام تقتص منه بعمل مماثل؟ هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له: تقتص منك بالزنا فيك؟ لا. إن القصاص في الحرمات لا يكون إلا في المأذون به؛ وكذلك إذا سرق مني إنسان مالا وليس لدي بيته، لكنني مقتنع بأنه هو الذي سرق هل أقتص منه بأن أسرق منه؟ لا، إن القصاص إنما يكون في الأمر المعروف

وقال الشعراوي: «قوله الحق: ﴿وَأَلْمَمْتُ بِقِصَاصٍ﴾ يقتضي منا أن نسأل: كيف يكون ذلك؟ وما هو الشيء الحرام؟ إن الشيء الحرام هو ما يحظر هتكه، والشيء الحلال هو المطلق والمأذون فيه، فهل يعني ذلك أن الذي يقوم بعمل حرام تقتص منه بعمل مماثل؟ هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له: تقتص منك بالزنا فيك؟ لا. إن القصاص في الحرمات لا يكون إلا في المأذون به؛ وكذلك إذا سرق مني إنسان مالا وليس لدي بيته، لكنني مقتنع بأنه هو الذي سرق هل أقتص منه بأن أسرق منه؟ لا، إن القصاص إنما يكون في الأمر المعروف

(٢) تفسير الشعراوي ٢/٨٢٩.

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٢/١٧١.

إلى التصريح وهو قوله: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهَوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ وفي المرتبة الثالثة أمرنا بالصبر على سبيل الجزم، وفي هذه المرتبة الرابعة كأنه ذكر الوعيد في فعل الانتقام فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن استيفاء الزيادة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في ترك أصل الانتقام، فإن أردت أن أكون معك فكن من المتقين ومن المحسنين، ومن وقف على هذا الترتيب عرف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون على سبيل الرفق واللطف مرتبة فمرتبة، ولما قال الله لرسوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ذكر هذه المراتب الأربعة تبييناً على أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة يجب أن تكون واقعة على هذا الوجه، وعند الوقوف على هذه اللطائف يعلم العاقل أن هذا الكتاب الكريم بحرٌ لا ساحل له^(١).

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّبَ بِهِ ثُمَّ بَغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَحَزْرًا وَسَيِّئَةً سَأَلْنَا مِنْهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

هذه الآية أصلٌ كبيرٌ في علم الفقه

الأولى بك أن لا تأكله، فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على أن الأولى تركه.

والمرتبة الثانية: الانتقال من التعريض إلى التصريح وهو قوله: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهَوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام؛ لأن الرحمة أفضل من القسوة، والإنفاق أفضل من الإيلام.

المرتبة الثالثة: وهو ورود الأمر بالجزم بالترك وهو قوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ لأنه في المرتبة الثانية ذكر أن الترك خيرٌ وأولى، وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالأمر بالصبر؛ ولما كان الصبر في هذا المقام شاقاً شديداً ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ

إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه ومعونته، وهذا هو السبب الكلّي الأصلي المفيد في حصول الصبر، وفي حصول جميع أنواع الطاعات؛ ولما ذكر هذا السبب الكلّي الأصلي ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب، فقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وذلك لأن إقدام الإنسان على الانتقام، وعلى إنزال الضرر بالغير لا يكون إلا عند هيجان الغضب.

المرتبة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وهذا يجري مجرى التهديد؛ لأن في المرتبة الأولى رغب في ترك الانتقام على سبيل الرمز، وفي المرتبة الثانية عدل عن الرمز

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/٢٨٩.

وانظر: السراج المنير، الشرييني ٢/٢٧٢.

فإن مقتضاها أن تقابل كل جنابة بمثلها؛ وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان؛ لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزه عنه، فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل، ثم تأكد هذا النص بنصوص أخر، كقوله تعالى: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وإن صبرتم لهو خير للصبرين﴾ [النحل: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿من عمل سيئة فلا يجزئها إلا مثلها﴾ [غافر: ٤٠].

وقوله عز وجل: ﴿كذب عليكم القصص في القتلى﴾ [البقرة: ١٧٨].

والقصص عبارة عن المساواة والمماثلة، وقوله تعالى: ﴿والجروح قصاص﴾ [المائدة: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ [البقرة: ١٧٩].

فهذه النصوص بأسرها تقتضي مقابلة الشيء بمثله، ثم ها هنا دقيقة؛ وهي أنه إذا لم يمكن استيفاء الحق إلا باستيفاء الزيادة فما هنا وقع التعارض بين إلحاق زيادة الضرر بالجاني، وبين منع المجني عليه من استيفاء حقه، فأيهما أولى؟ فما هنا محل اجتهاد المجتهدين، ويختلف ذلك باختلاف الصور، وتفزع على هذا الأصل

بعض المسائل تبيينها على الباقي (١).

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وحزواً سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠].

كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فأعدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة: ١٩٤].

وكقوله: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وإن صبرتم لهو خير للصبرين﴾ [النحل: ١٢٦].

فشرح العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله تعالى: ﴿والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ [المائدة: ٤٥].

ولهذا قال هاهنا: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ [الشورى: ٤٠].

أي: لا يضيع ذلك عند الله، كما صح في الحديث: (وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) (٢).

وقوله: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ [الشورى: ٤٠].

أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة. وقال بعضهم: لما كانت الأقسام ثلاثة: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ذكر الأقسام الثلاثة في هذه الآية، فذكر المقتصد وهو الذي يفيض بقدر حقه لقوله:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/٢٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم ٢٥٨٨.

﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَقَابِلِ﴾ ﴿١٥﴾
 قُلْ أُوْنِبِعْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿آل عمران: ١٤-١٥﴾^(٣)

وذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّ من أحسن عمله في هذه الدار التي هي الدنيا كان له عند الله الجزاء الحسن في الآخرة. وأوضح تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة:

كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْمُسْتَقِيمِينَ زِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].
 والحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١].
 وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا﴾ [القصص: ٨٤].
 أي: مجازاة حسنة بالجنة ونعيمها^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلَهَا﴾ ثم ذكر السابق بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَلِجْزَاهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ثم ذكر الظالم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى من الظلم^(١).

رابعاً: أهل الجزاء الحسن في الآخرة وصور منه:

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ قَالُوا خَيْرٌ مِنَ الَّذِي كُنَّا نَحْسِنُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَلِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

أخبر تعالى بأنّ دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتمّ من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠].
 وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].
 وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]^(٢).

وكرر جلّ وعلا هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النُّسْكَ وَالْبَيْنِ وَالْمَنْطَرِ الْمَمْنَطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالنُّضْكَ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٠.
 (٤) المصدر السابق.

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢١١.
 (٢) المصدر السابق ٤/ ٥٦٨.

وَالْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرَ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿١٥﴾ [القصص:

٨٠]. أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون.

كما في الحديث الصحيح: (يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]).^(١)

وقوله: ﴿وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ قال السدي: «وما يلقي الجنة إلا الصابرون»^(٢).

ومن صور الجزاء الحسن في الآخرة: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُرِيدُ﴾ [الكهف: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٤-٧٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٥.

وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ﴿١٦﴾ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه من حال أولئك الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين، لا يستطيعون حراكًا، ولا انتصارًا ولا فكًا مما هم فيه: أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدنا الله المتقين من عباده التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: من الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومسكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سرمدًا بلا انقطاع ولا زوال، ولا انقضاء، لا يبغون عنها حولا، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي: لا بد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي: وعدًا واجبا»^(٣).

(٣) المصدر السابق ٦/ ٩٨.

الجزاء السيئ في الدنيا. واعلم أنه لا يوفى أحد جزاءه في هذه الدار لأن توفية الأجور إنما تكون في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنَّمَا تَوْفِيقُكَ أَجُورُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] (٢).

ومن صور الجزاء السيئ في الآخرة:

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) تَكَانَ عَقِبَتَيْهَا أَتَمَامًا فِي النَّارِ خَلِيدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ [الحشر: ١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

شرح تعالى في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وثبت في صحيح مسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون) (٣). قال الله تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتُونَ﴾ [الزخرف: ١٧].

(٢) المنار، محمدرشيد رضا ٤/ ٢٢١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء برحمته، رقم ١٨٥.

وقوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ﴾ [الرعد: ١٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهو الجزاء الحسن، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ (٤٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] (١).

خامساً: أهل الجزاء السيئ في الآخرة وصور منه:

لا تنتظر أن يوفى أهل الجزاء السيئ جزاء عملهم السيئ كله في هذه الدار، كما أنّ أجرك على عملك لا توفاه في هذه الحياة، فحسبك ما أصبت من الجزاء الحسن، وحسبهم ما أصيبوا، وما يصابون به من

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٤٩.

[٧٧].

تَجْرِي الْمَجْرِمِينَ ﴿ [الأعراف: ٤٠].
وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ أَلَّوْا نَارَ
الْجَهَنَّمَ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ﴾
[فصلت: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا
الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن
كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْرِي الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا
يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

الاستفهام هنا إنكاري، أي: وإذا كانت
آيات الله مشتملة على ما ذكر من البيّنة
الكاملة والهداية الشاملة والرّحمة الخاصّة
والعامّة؛ فلا أحد أظلم ممّن كذب بها
وأعرض عنها، ولم يكتف بصدوفه عنها
وحرمان نفسه منها، بل صدف النّاس، أي
صرفهم وردّهم أيضًا^(٣).

فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة
لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله
تعالى: ﴿لَا يَبْغِضُ عَلَيْهِمْ يُمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ
عَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ
الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَمْتَرُ
عَنَّهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥].
وقال: ﴿كُلَّمَا حَبَتِ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾
[الإسراء: ٩٧].

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

ثمّ قال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾
أي: هذا جزاء كلّ من كفر برّبّه وكذب
بالحقّ^(١).
وقوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَٰءَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[فصلت: ٢٧].

أي: بشرّ أعمالهم وسيّء أفعالهم، وهو
الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا
يعملون؛ لكونهم يعملون المعاصي وغيرها،
فالجزاء بالعقوبة، إنّما هو على عمل الشرك
﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٥٢/٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٧٤/٧.

تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٨.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ١٨٢/٨.

من جنس العمل، فكما رجع العبد إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة: ﴿وَأَنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الطلاق لما كان لفظاً يسمع، ومعنى يقصد عقبه باسم «السميع» لما نطق به «العليم» بمضمونه» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاوَةً بَغْيٍ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلِبْ أَيْدِيَهُمْ وَأَنْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰئِكَ مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨-١١٠].

قال ابن القيم: «هذا عطف على قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰئِكَ مَرَّةً﴾ فقال كثير من المفسرين: المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة، قال ابن عباس: في رواية عطاء عنه: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي، قال: وهذا كقوله:

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص ١٤٩.

قواعد في الجزاء

أولاً: الجزاء من جنس العمل:

قال ابن القيم: «قد فطر الله سبحانه عباده على أن حكم التظير حكم نظيره، وحكم الشيء حكم مثله، وعلى إنكار التفریق بين المتماثلين، وعلى إنكار الجمع بين المختلفين، والعقل والميزان الذي أنزله الله سبحانه شرعاً وقدرًا يأبى ذلك؛ ولذلك كان الجزاء مماثلاً للعمل من جنسه في الخير والشر...، فهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كله قائم بهذا الأصل، وهو إلحاق التظير بالتظير، واعتبار المثل بالمثل؛ ولهذا يذكر الشارع العلل والأوصاف المؤثرة والمعاني المعتمدة في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية» (١).

ومن الآيات التي تحقق فيها معنى الجزاء من جنس العمل:

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧].

قال ابن القيم: «حتم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة والإحسان إليها بأنه غفور رحيم، يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء

(١) إعلام الموقعين، ١/ ١٥٠.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا اللَّهُ يُحْيِي بَيْنَ يَدَيْهِ الْمَرْتَدَّ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

وقال آخرون: المعنى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعاً من التعليل، كقوله: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيم: «فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا الأمر به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته القريبة من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفاً وطمعاً، فقرب مطلوبكم منكم - وهو الرحمة - بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعداً يبعد وقرباً بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه، والإحسان ها هنا هو

(١) المصدر السابق ص ٢٤٢.

المنكر قبول النصيحة ﴿أَجْمِنَا الَّذِينَ يَهْتَوُونَ
عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا
المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنص على نجاة
التأهين، وهلاك الظالمين، وسكت عن
السَّاكِئِينَ؛ لأنَّ الجزء من جنس العمل، فهم
لا يستحقُّون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا
عظيمًا فيذمُّوا^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمُ
مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:
١٧].

قال ابن كثير: «أي: فلا يعلم أحدٌ عظمة
ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم
المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها
أحدٌ، لما أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من
الثواب، جزاءً وفاقًا؛ فإنَّ الجزء من جنس
العمل»^(٤).

ومن الآيات الصريحة في هذا المعنى:
قوله تعالى: ﴿فَيَسْحَرُونَ مِنْهُمْ سِحْرَ اللَّهِ
مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]^(٥).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْدَتَنَا
فَنَيْسِنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦]^(٦).

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُنَّ كَمَا

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٩٤.
وانظر: محاسن التأويل القاسمي ٥/ ٢١٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٦٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ٤/ ١٨٨.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٤،
محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٦٤، تيسير
الكريم الرحمن، السعدي ص ٥١٦.

فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى الناس
أو إلى نفسه»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «﴿فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدين،
وليس مرضًا في الأجساد، وهم المنافقون،
والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام
﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجسًا،
وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا
وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾^(١٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾
[التوبة: ١٢٤-١٢٥].

قال: شرًّا إلى شرهم، وضلالةً إلى
ضلاتهم».

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله عبد
الرحمن رحمه الله حسنٌ، وهو الجزء من
جنس العمل؛ وكذلك قاله الأولون، وهو
نظير قوله تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ هَمَزُوا لِقَوْلِهِمْ
هُدًى وَمَأْتَهُمْ ثَمَرَاتُهُمْ﴾ [محمد: ١٧]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ
أَجْمِنَا الَّذِينَ يَهْتَوُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ
ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾
[الأعراف: ١٦٥].

قال ابن كثير: «أي: فلما أبى الفاعلون

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ٢٦٦.
وانظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ١٧٩.

أخزاه الله فيقول له أخزاه الله»^(٧).
 وبين تعالى أن الجزاء بمقدار العمل
 فقال: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].
 أي: مرهون.
 قال الزمخشري: «كأن نفس العبد رهن
 عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به،
 كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن عمل
 صالحاً فكها وخلصها وإلا أبقها»^(٨).
 وقال تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 [الواقعة: ٢٤].

أي: هذا الذي أتحنفناهم به مجازاة لهم
 على ما أحسنوا من العمل^(٩). فكما حسنت
 منهم الأعمال أحسن الله لهم الجزاء، ووفر
 لهم الفوز والنعيم^(١٠).
 وقال تعالى عن نعيم أهل الجنة: ﴿وَمَا
 جُزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٣٩].
 وقد دلّ كتاب الله في جملته وتفصيله
 على أنّ مدار التجارة والفلاح على الإيمان
 والعمل الصالح ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا
 سَعَى﴾^(١١) ﴿وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾^(١٢) ثُمَّ يُجْزَاهُ
 الْجَزَاءَ الْآوَفَ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].
 ﴿لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

سَوَاقِعَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]^(١).
 وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَبُكُمْ كَمَا نَبَيْتُمْ
 لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]^(٢).
 وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَصُورُوا
 اللَّهُ يَصُورُكُمْ وَيُبَيِّنُ أَمَانَكُمْ﴾ [محمد: ٧]^(٣).
 وقوله تعالى: ﴿وَلَنَصُورَنَّكَ اللَّهُ مِنْ
 يَصُورُوكَ﴾ [الحج: ٤٠]^(٤).
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَلِّدُونَ اللَّهَ
 وَهُوَ خَالِدُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]^(٥).

ثانياً: الجزاء بمقدار العمل:

العدل في الجزاء غاية من غايات الخلق
 والإعادة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ
 ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ
 وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:
 ٤]^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾
 [الشورى: ٤٠].
 فيه وجوب العدل في الجزاء، وعدم
 الاعتداء فيه.
 قال ابن أبي نجيع والحسن: «لو قال

(٧) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي
 ص ٢٣٠.
 (٨) الكشاف ٤/ ٤١١.
 وانظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٩٤.
 (٩) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٢٤.
 (١٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٨٣٣.

(١) انظر المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩٢.
 (٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي
 ص ٧٧٨.
 (٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٠.
 (٤) انظر: المصدر السابق.
 (٥) انظر المنار، محمد رشيد رضا ١/ ١٢٦.
 (٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٦٤.

﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم^(٤) عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا) - إلى أن قال -: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)^(٥).

ولا تعارض بين أن الجزاء بمقدار العمل (العدل في الجزاء) وبين مضاعفة الجزاء فالأصل في العدل أن يكون الجزاء السيئ على قدر الإساءة وتأثيرها في تدسية نفوس المسيئين، والجزاء الحسن على قدر الإحسان وتأثيره في أرواح المحسنين، ولكنه تعالى برحمته وفضله يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعاف، ويزيد من يشاء ولا يضاعف السيئة، والآيات المفصلة في هذا المعنى كثيرة، وبها يفسر المجمع^(٦).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٧/١٣٦.

(٦) المنار، محمد رشيد رضا ٣/١١٧.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]^(١).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهِيَ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا﴾ كل يقول: نفسي نفسي، لا يهمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]^(٢).

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لا ينقص من حسناتها ولا يزداد في سيئاتها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(٣).

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾»

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/٣١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٠.

(٣) المصدر السابق ص ٦٩٧.

فقوله الحق سبحانه: ﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [هود: ٢٠].

لا يتناقض مع قوله الحق: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد، بل لهم وزران: وزر الضلال في ذواتهم، ووزر الإضلال لغيرهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُونَ فِيهَا بغيرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

بزيادة تفضل؛ لأنه لو كان على مقدار العمل فقط لكان بحسابه^(٢).

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَثَلٍ وَّزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال

تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدود والرّضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين،

وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكر الصّدّيق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، قال البغوي: وأبو موسى، وعبادة بن الصّامت، وسعيد بن المسيّب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضّحّاك، والحسن، وقتادة، والسّديّ، ومحمّد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلِي تَقَرَّبِكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

قال ابن كثير: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلِي تَقَرَّبِكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبّتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)^(٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٦٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البرّ والصّلة والأداب، باب تحريم ظلم المسلم، وحذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم ٢٥٦٤.

(١) تفسير الشعراوي ١٠/٦٤٠٩.

(٢) تفسير ابن فورك ٢/٣٦٠.

[٢٥]

ونقول: التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هين لو فهموا الفرق بين الوزر في الآية الأولى، والوزر في الآيتين الأخيرتين. ففي الأولى وزر ذاتي خاص بالإنسان نفسه، حيث ضلّ هو في نفسه، فيجب أن يتحمّل وزر ضلاله، أما في الآية الثانية فقد أضلّ غيره، فتحمّل وزره الخاص به، وتحمّل وزر من أضلّهم.

ويوضح لنا هذه القضية الحديث النبوي الشريف: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) (٢).

مع الإطماع في الفضل والنعمة والتحذير من اليوم الذي يأتي وصفه: ﴿لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨].

فالتبعية فردية والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً.

وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم، مبدأ التبعية الفردية القائمة على الإرادة والتمييز

(٢) تفسير الشعراوي ١٤/٨٤١٧.

والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرّة، رقم ١٠١٧.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: إنّما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمْ فِي الفِرْقَانِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كلّ بأس وخوف وأذى، ومن كلّ شرّ يحذر منه (١).

ثالثاً: كل نفس تجازى عن نفسها:

عدل الله يقتضي أن يحاسب الإنسان بعمله، وأن يسأل عن نفسه، فلا يرمي أحد ذنبه على أحد، كما قال تعالى: ﴿بِأَنفُسِنَا أَنفُسَ النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

وحول هذه القضية تحدّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون في القرآن عن مأخذ، فوقفوا عند هذه الآية: ﴿وَلَا نُزِرُ وَازِرَةً وَزِرًا أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥].

وقالوا: كيف نوفق بينها وبين قوله: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَنفُسَهُمْ وَأَنفَالًا مَعَ أَنفَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٥٢٢.

من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله، وهو أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره، وكلاهما عامل من عوامل التربية فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: واحذروا يوماً عظيماً أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال، ومراقبته في جميع الأعمال، فهو يومٌ لا تقضي فيه نفس - مهما يكن قدرها عظيماً - عن نفس مهما يكن ذنبها صغيراً شيئاً ما، كحمل وزرها أو تكفير ذنبها ﴿وَلَا تَنْزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ سَنِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل: يوم القيامة مثلاً؛ للإشعار بأن التصرف في ذلك اليوم والأمر كله لله، فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض، وعبر عن هذا المعنى في أول سورة بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الفاتحة: ٤].

ثم وصفه هنا بوصفٍ آخر يناسب الأول

فقال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]^(٢).

فلما ذكرهم الله تعالى بنعمه أو لا عطف على ذلك التحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا يعني أحدٌ عن أحدٍ كما قال: ﴿وَلَا تَنْزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْغَوَّاسُ مِنْ غَوَاهِ ۖ وَأُمَةٌ وَأُوْدٌ ۖ وَمَجِيحٌ ۖ وَيَبِيدٌ ۖ وَكُلٌّ لِكُلِّ أُمَّةٍ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفِيدُ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وقال: ﴿يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَهْدَلُ كُلُّ مُرْسِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

وقال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ سَنِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال: ﴿فَإِذَا فُجِعَ فِي الْأُصُورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ وَأَخِشُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ وَالِدٌ عَنْ وَالدِّهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

فهذه أبلغ المقامات: أن كلاً من الوالد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٧٠.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٢٥٣.

فالأية بمعنى قوله تعالى في هذه السورة:
﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

فقوله: ﴿لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾
بمعنى نفي الخلّة هنا، والعدل: هو الفداء
بالعوض، وهو بمعنى البيع المنفي هنا،
ومثلها آية ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ
شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] (٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً مِمَّن قَبِلَ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا
خِلَالَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

قال ابن كثير: «المراد من هذا أنه يخبر
تعالى أنه لا ينفع أحدًا ببيع ولا فدية، ولو
افتدى بملء الأرض ذهبًا لو وجدته، ولا
ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي
الله كافرًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا
تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا
تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا
مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِمَّن قَبِلَ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ
وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
[البقرة: ٢٥٤] (٤).

وولده لا يعني أحدهما عن الآخر شيئًا (١).
وهؤلاء الذين يصدّون عن سبيل الله
لن يجدوا وليًا ولا نصيرًا في الآخرة، وإن
وجدوه في الدنيا لأن كل إنسان في الآخرة
سيكون مشغولًا بنفسه.

إذن: فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن
سبيل الله لا يعجزون الله في الأرض، ولا
يجدون الولي أو النصير في الآخرة (٢).

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا
مِمَّا رَزَقْتَكُمْ مِمَّن قَبِلَ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ
وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
[البقرة: ٢٥٤].

قال محمد رشيد رضا: «فسروا فيه
البيع بالافتداء وجعلوا فيه الخلّة والشّفاعة
على ظاهرهما، أي أنفقوا فإنّ الإنفاق في
سبيل الخير والبرّ - وهي سبيل الله - هو
الذي ينجيكم في ذلك اليوم الذي لا ينجي
الأشحة الباخلين فيه من عذاب الله تعالى
فداءً فيفتدوا منه أنفسهم، ولا خلّة يحمل
فيها خليل شيئًا من أوزار خليله، أو يهبه شيئًا
من حسناته، ولا شفاعة يؤثر بها الشّفيع في
إرادة الله تعالى، فيحوّلها عن مجازاة الكافر
بالنّعمة الباخل بالصدقة المستحقّ للمقت
والعقوبة بتدنيس نفسه وتدسيثها في الدنيا،
وهذا هو الوجه الذي اختاره الأستاذ الإمام،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٢٥٦،

٢٢٥/٨، تفسير الشعراوي ١٠/٦٤٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٤٠٤.

(٣) تفسير المنار ٣/١٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٥١٠.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

أي: لا تحمل نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، بل كلُّ مطالبٌ بأمر نفسه^(١).

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

أمر تعالى الناس بتقواه التي هي امثال أوامره، وترك زواجه، ويستلقتهم لخشية يوم القيامة اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهمله إلا نفسه فـ ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلقت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعددهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلماذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزيتها

وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الذي هو الشيطان الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن لله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه؟! وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليها^(٢).

قال ابن كثير: «يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وأمرًا لهم بتقواه والخوف منه، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه.

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يعني: الشيطان»^(٣).

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجنة، الحساب، العمل، الكسب، النار

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٣٥١.

(١) المصدر السابق ٧/٨٧.